﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ [الفرقان: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستطاعةُ يومَ القيامةِ كائنةٌ للمؤمنِ الذي عبَدَ اللهَ وهو سالِمٌ مُستطيعٌ في الدّنيا

لمّا ذَكَرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ احتجاجَ المعبودين عليهم وبراءَتهم منهم؛ التفتَ الحقّ سبحانه في هذه الآية إليهم بخطابٍ مُباغِتٍ وحاسم، كأنّه الحُكْمُ والقضاء بعد التّحرّي والاستقصاء؛ فقضى عليهم بأنّهم كاذبون مُكَذِّبون، وعاجزون مُضطرّون، وظالمون مُعذَّبون، فكانتِ القاصمة القاضية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَرۡفٗا﴾: (صرف) أصلٌ يدلّ على رجْعِ الشّيء[1]، والصّرْف: ردُّ الشّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، وإبدالُ غيره به، وقيل: هو التّقليب والتّحويل[2]؛ يُقال: صَرَفْتُهُ فانْصَرَفَ: إذا رددتّه عن وجهه الذي كان عليه، فتَحَوّل عنه[3]، ولذا سُمّيتِ التّوبة بالصّرفِ؛ لكونها انقلابًا من حالِ المعصيةِ إلى حالِ الطّاعة[4]، وكلّ تغيّرٍ من حالٍ إلى حالٍ، فهو صَرْفٌ للحالِ ودفْعٌ لها إلى ما سواها، وقولُه في هذه الآية: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾؛ أيْ: ما يستطيعون أن يصرفوا عن أنفسهم العذابَ ولا أن ينصروا أنفسَهم، فلا يَردّونه عنهم، ولا يُفلِتون بأنفسهم منه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعريفُ الجاني حيثيّة الحُكمِ عليه وتفصيلُ ذلك له

يُخبر سبحانه عن فصل الخطاب الذي بوغِتَ به المشركون في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(2) السَّمين، عُمدةُ الحُفّاظ: (صرف).
(3) الرّاغب، المُفرَدات: (صرف).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (صرف).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صرف).

مقام الاحتجاج عليهم أمامَ معبوديهم، فيُقال لهم: لقد كَذَّبكم هؤلاء الذين عبدتُموهم في ادِّعائكم عليهم، فها أنتُم أولاءِ لا تستطيعون دَفْعًا للعذاب عن أنفسكم، ولا نصرًا لها، ومَن يُشرك باللّه فيَظْلم نفسَه ويَعْبُد غيرَ اللّه، ويمُتْ على ذلك، يُعذِّبهُ اللّهُ عذابًا شديدًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾ ممّا قبله:

مواجهةُ الظّالمِ بجنايتِهِ بعد إقامةِ الحُجَّةِ عليه

جملة ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ معطوفةٌ على قولٍ محذوفٍ ترتّب على جواب المعبودين السّابق في ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، والفاء فصيحة؛ أيْ: فقال اللّهُ تعالى عند ذلك: فقد كذّبكم المعبودون أيُّها الكَفَرة في قولكم إنّهم آلهة، ففي الجملةِ حذفٌ للقول، والتفاتٌ بالخطاب إلى العابدين بعد تمام جواب المعبودين؛ مبالغةً في مفاجأتهم، والتّفرّغ لهم بالتّقريع والتّبكيت، وهو التفاتٌ إلى أحد طرفي الخصومة بعد استجواب الطّرف الآخر، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف: 29] بعد قوله: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف: 29]، والجملة على هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ[2].

نُكْتَةُ حَذفِ فعلِ القولِ:

مُعايشةُ الخبرِ هي غايةُ الاستفادةِ منه

في حذف فعل القول من قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ على تقدير: (فقال اللّه تعالى: فقد كذّبوكم) استحضارٌ لصورة المقام كأنّه مُشاهَدٌ، فلا يحتاج للحكاية بالقول، وكأنّ السّامع يُشْهِد العابدين وقد بُهِتوا بالحُجّة، وخُذِلوا بعد الشّهادة عليهم منَ المعبودين، وهو تفنُّنٌ بديع في الحكاية، يعتمد على تنزيل المَحكيّ منزلةَ الواقعِ المُتخيَّلِ، كأنّه مشهودٌ معيشٌ[3].

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 361.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.

دلالةُ (قد) التّحقيقيّة في السّياقِ:

(قد) في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ تحقيقٌ لمضمونِ مدخولها، ونُكْتَةُ التّحقيق أنّه مَسوقٌ في موقع القضاء والفصل والاحتجاج؛ فاحتيجَ لإيقاعه بأسلوب التّحقيق واليقين.

معنى الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

الباءُ في قوله: ﴿كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ للظّرفيّة المجازيّة؛ أيْ: كذّبوكم في شأنِ قولكم، أو للسّببيّة؛ أيْ: كذّبوكم بسبب ما تقولون[1].

معنى (ما) في ﴿بِمَا﴾:

(ما) في قوله: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ يُحتمل أن تكون موصولًا اسميًّا، والعائد محذوف؛ أيْ: كذّبوكم في الذي تقولونه، ويُحتمل أن تكون موصولًا حرفيًّا، تؤوّل مع الفعل بمصدر؛ أيْ: كذّبوكم في قولكم، أو بسبب قولكم[2].

العبرةُ بحقيقة القول في نفسه لا بتصوّر الأذهان عنه

دلالةُ التّعبيرِ بالقولِ دونَ غيرِهِ في ﴿تَقُولُونَ﴾:

لم يُقَلْ في السّياق الكريم: (فقد كذّبوكم بما تفترون أو تدّعون)، ونحو ذلك؛ بل عُبّر بالقول: ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ لأنّه قولٌ مقابلٌ لقولِ المعبودين، كما عبّر به في قوله: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ﴾، فقولُ هؤلاء التّنزيه، وقولُ هؤلاء التّضليل، وأيضًا: التّعبير بالقول دونَ غيره في ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾؛ لاحتمال أن يُراد به قولُ المعبودين بالتّنزيه في قولهم: ﴿قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ﴾؛ أيْ: فقد كذّبَكم العابدون أيّها المعبودون في قولكم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء، حيثُ زعموا أنّكم آلهة[3].

القولُ مَلفوظٌ بالنّطقِ، أو مدلولٌ عليه بالحالِ

دلالةُ القراءةِ بالغيبةِ في ﴿يَقُولُونَ﴾:

قرأ قُنْبُل بخلاف عنه ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمو بِمَا يَقُولُونَ﴾ على الغَيبة،

تباينُ الضمائرِ يُباينُ المعاني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 441.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 441.

وتوجيه ذلك عَودُ الخطاب للعابدين في ﴿كَذَّبُوكُم﴾، وضمير الجمع فيه وفي ﴿يَقُولُونَ﴾ للمعبودين؛ أيْ: فقد كذَّبكم أيّها العَبَدةُ مَنْ كنتم تعبدونهم بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، وأنّه ما كان ينبغي لهم أنْ يتّخذوا من دونه من أولياء، وقرأ الباقون بتاء الخطاب: ﴿تَقُولُونَ﴾[1].

معنى الفاءِ في ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾:

مَنْ لم يستطعِ الحقَّ في الدُّنيا فلا استطاعةَ له في الآخرةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ لتفريع مدخولِها على ما قبلَه، فما بعدَها مُترتِّبٌ على ما قبلها ترتُّب النّتيجة عنِ السّببِ، ويصِحّ أن تكون الفصيحة، فمدخولُها معطوفٌ على شرطٍ محذوفٍ ناشئ عمّا قبله؛ أيْ: فإذا ثبت كَذِبُكُم أيّها الكَفَرةُ في اتّخاذ المعبودين أندادًا من دون اللّه، وتحقّق الحقُّ ببراءة العابدين بتسبيحهم لربّهم، ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾، أو هي فاءُ التَّسبيب؛ أيْ: فتَسبَّبَ عن ذلك التّكذيبِ أنّكم أيّها المشركون لا تملكون دفعًا للعذاب ولا نصرًا لأنفسكم، وكلّ هذه المعاني لا تخرج عن معنى التّفريع المَذكور[2].

دلالةُ القراءةِ بالغَيبةِ في ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾:

لا أحدَ يستطيعُ نفعًا أو ضرًّا إلّا بإذنِ اللهِ ورِضاه

قرأ الجمهورُ بالغَيبة في قوله: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ على أنّ الضّمير للمعبودين؛ أيْ: ما يستطيع الشُّركاءُ والمعبودون صرفَ العذابِ عنكم، ولا جلْبَ النّصر لكم[3]، وقرأ حفصٌ عن عاصم بتاء الخطاب ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾[4].

دلالةُ التّغليبِ في واوِ الجمعِ:

التّغليب ضربٌ منَ المجازِ

واو جمعِ العقلاءِ في قولِه: (يستطيعون) على قراءةِ الياءِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/ 5262، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 441.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 342.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 16/ 439.

(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 463، وابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 271، ومكّي، التّبصرة، ص: 613، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 334.

عائدةٌ إلى المعبودين من الملائكة وعيسى وغيرهم من أولي العقلِ والعِلْم، وعائدةٌ إلى المعبودين منَ الأصنامِ والجماداتِ غيرِ العاقلةِ، بتغليبِ العاقلِ على غيرِ العاقلِ وتنزيلِهِ منزلتَه، ويمكن اعتبار إرادةِ المعبوداتِ كافَّةً (عاقلة وغير عاقلة) من طرائقِ عموم المجازِ، أو الجمع بين الحقيقةِ والمجازِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في ﴿صَرْفًا﴾ ﴿نَصْرًا﴾:

ليس مَن يَعْجزُ فلا يفعل، كمَن يحاولُ فيَعْجز

لم يقُلْ في السّياق الكريم: (كذّبوكم بما تقولون فلا تُصرفون ولا تُنصرون)؛ بل نفى الاستطاعةَ وأسندها إلى المصدر؛ ليمنعَ عنهم مُجرَّد الاتّصافِ بالفعل، فقد يحاول المَرءُ أنْ ينصر نفسَه، أو يصرفَ عنها السّوء، فيكون متَّصفًا بالفعل، ولكنّه يفشل في إمضائه، فعبّر بنفي الاستطاعة أوّلًا؛ ليُنبّه على تجرّدهم وخُلوِّهم من جاهزيّة المحاوَلةِ أصلًا، فهم مجبورون مقهورون، ثمّ أسندَ العَجزَ الذي استلزمه نفيُ استطاعتِهم إلى حقيقة الحَدَث، وهو الصّرْفُ والنّصر؛ ليَدُلَّ على ثبوت عجزهم واستمراره، وكأنّ جنسَ النَّصرِ كلِّه خرج عن حَيّز استطاعتِهم، وزالَ عنهم أفرادُه وحقيقتُه، ويجوز أن يكون مفهومُ النَّصرِ عدمَ استطاعةِ الدّفاع عن نفسك، فيأتي مَنْ يدفع عنك، والصّرف: أن تدفع بذاتك عن ذاتك إنْ تَعرَّضَ لك أحدٌ بالشَّرّ[2]، وبذا يكون نفيًا للقُدرتَيْن: الذّاتيّة، والخارجيَّة.

المجازُ في ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ لغرضِ التّهكّم:

كلّ مخلوقٍ هو بين يدي اللهِ لا يستطيعُ شيئًا دونَ إرادتِهِ

في ترتيبِ عدمِ الاستطاعةِ على التّكذيبِ في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ مجازٌ لقصد التّهكّم بهم وإيلامِهم؛ لأنّ عدمَ استطاعتِهم صرفًا ولا نصرًا لا يتوقّف على التّكذيب المَذكور؛ فليس التّكذيبَ سببُه حقيقةً؛ بل هو مُجرّد

(1) السَّمين، الدّرّ المَصون: 8/ 468، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 46.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10396.

أمارةٍ عليه، وعدمُ استطاعتهم حاصلٌ لا محالةَ بتكذيب أو من غير تكذيب؛ لأنّ سببَها الحقيقيَّ هو نزع الاختيارِ والإرادةِ عنهم في موقفِ الحسابِ، فلا قدرةَ لهم على شيءٍ البَتّة، فنَزَّل الأمارةَ العارضة منزلَةَ السَّببِ الوجوديِّ الحقيقيِّ في إنتاجِ آثارِهِ وترتُّب الحوادثِ المُلائمةِ عليه، ويصِحّ إجراءُ هذا التّشبيهِ على الاستعارةِ التّمثيليّةِ في التّركيبِ.

موقعُ جملةِ ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾:

تُـذَيِّـلُ حيثيّاتِ القضايا ببُرهانِها الـعـامِّ مـنَ القانونِ

جملة ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ تذييلٌ له معنى التّعليلِ مُقَرِّرٌ لمضمون ما قبلَه، كأنّه قيل: لا يستطيعون صرفًا ولا نصرًا لأنّهم ظالمون مستحِقّون للعذاب، أو هي استئناف مُقَرِّرٌ للحُكْم العامّ في المصير، واردٌ كما يَرِد القانون العامُّ في أعقاب الحيثيّات الخاصّة مُصادقةً عليها، وتنبيهًا على أنّ الوقائع المذكورة منوطةٌ بهذا التّشريع الجامع محكومةٌ به، وعلى التّوجيه الأوّل: فالخطاب في ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ للمشركين العابدين الأندادِ، وعلى التّوجيهِ الثّاني: فالخطاب لعموم النّاس، ويدخل فيهم المشركون دخولًا أوَّليًّا، ويكون في الكلام إظهارٌ في محلّ الإضمار؛ لتقرير عمومِ الخطابِ، كأنّه عدلَ عن أنْ يُقال: (فما تستطيعون صرفًا ولا نصرًا ونذيقكم عذابًا) إلى التّعميم في الشّرط ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾، وليَدُلَّ بهذا التّعميمِ على أنّ كفرهم حقيقٌ بأنْ يُتوعَّدَ عليه استقلالًا؛ لإيغالهم فيه وبلوغهم الغايةَ منه، والظُّلم في كِلا الخِطابيْن يُراد به الشِّرك، ومعنى ﴿وَمَن يَظْلِم﴾ على أنّ الخطاب خاصٌّ بالمشركين: الدّيمومةُ والاستمرار؛ أيْ: ومَن يستمرَّ على ظُلمه وشِركه[1].

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿نُذِقْهُ﴾:

الـتّـهـكُّـمُ بهم ومُضاعفةُ الآلامِ عليهم

في قوله: ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا﴾ نُزِّل إدراكُ العذابِ الأليمِ والإحساسُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 442.

به ألَمًا وإيجاعًا منزلةَ مَنْ يستسيغ الطّعمَ تذوّقًا واستحسانًا؛ ففيه استعارةٌ تبعيّةٌ؛ للتّهكّم بهم ومضاعفةِ الآلامِ عليهم[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالإذاقةِ:

قوله: ﴿نُذِقْهُ﴾ مُشْعِرٌ بأشدّ العذاب؛ لأنّ الإذاقة تدلّ على سريان الألَمِ في الحاسّة واستغراقه لها، وهذا من أبشع ما يكون في مستوى الإحساس بالوجَع والتّضرّر به.

❁ الفروقُ المُعجميّةُ:

(الذّوقُ) و(المَسُّ):

الذّوق يدلّ على الإحساسِ العميقِ والتّشبُّعِ بالشَّيءِ

المَسُّ يتعلّق بحاسّة اللَّمس، ويكون من طريق اليَد أو البَشَرة (ظاهر الجِلد)، وتعلُّقُه بذلك يدلُّ على أنّ الأصل فيه أن يتعلّق بالإحساس الظّاهر الخفيف، وقد يتعلّق بالإحساس العميق المُتشبِّع، ويُحَدّد ذلك السّياقُ الذي ورد فيه، وأمّا الذّوقُ فيتعلَّقُ بحاسّة اللّسان والتّعاطي بالفم، ويستعمل هو والمَسّ في عموم تجربة الشّيء واختباره حِسًّا، إلّا أنّه يُستلَهَمُ من هذا التّعلّق اللّغويّ أنّ الذّوق يدلّ على الإحساس العميق والتّشبّع بالشّيء، فهو يدلّ على كمال الإحساس وتمامه، ولا يَلْزم ذلك في المَسّ إلّا بقرينة، وسياقات القرآن المجيد تُنْبِئُ عن هذا الفَرْق.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14: 54.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»